

المعلمي إنساناً وأديباً

بقلم:
د. محمد أبو بكر حميد



د. حميد مع الأديب الراحل بعد حصوله على وسام الملك عبدالعزيز من الدرجة الأولى

تدل على أنه قد اجتمعت في يحيى المعلمي خصال عدة رجال، وهم فريق من الناس تتدفق بهم حياة هذا الرجل الثرية بالحب والعطاء والأريحية والمروءة والنخوة إذ لم يكتف يحيى المعلمي بخدمة الأدب والثقافة والفكر بقلمه ولسانه بل أنشأ داراً للنشر «دار المعلمي» يخدم من خلالها رسالته في الحياة وينفق على طبع الكتب التي يتأكد من جودتها دون أن يفكر في العائد المادي للكتاب مكتفياً بالهدف الثقافي أو الأدبي الذي يقدمه الكتاب.

وإنسانية يحيى المعلمي تتجلى في النماذج الأدبية التي يكتب عنها، والشخصيات التي أعجب بها، وفي المؤلفات التي كتبها من واقع تجربته في خدمة الشرطة، وقبل هذا كله وبعده في العطر الذي تتركه معاملته للناس يتضوع في حياتهم. وقد حباه الله ذاكرة قوية لا تنسى كل ما يخص الناس فهو إن سأل أحدهم خدمة سعى فيها بجد ولا يهدأ له بال حتى يحققها له ويظل يتتبعها حتى لو لم يهتم بها صاحب الشأن نفسه. وبالمثل يستدعي المعلومة فيذكر أنها في كتاب كذا أو في صفحة كذا، وقد يقول لك أنه غير متأكد مما قال فلما تراجع تجد أن ما قاله هو الصحيح.

كان يحيى بن عبد الله المعلمي كبيراً في كل شيء، كان كبيراً في رتبته وكبيراً في نتاجه الأدبي وكبيراً في إنسانيته ومكانته في نفوس الناس وفي قلوب المثات بل الآلاف من تلاميذه وقراء أدبه في كل العالم العربي والإسلامي. كان يحيى بن عبد الله المعلمي وهو فرد جماعة من الناس بجهوده، وكان على اسمه معلماً يحفر على القلوب برطابة لسانه

كان الفريق المعلمي واحداً من أفذاذ الرجال الذين خدموا أمتهم بالكلمة والفعل معاً، فلم يكن يحيى بن عبد الله المعلمي رجل أمن خدام وطنه في الشطر الأول من حياته في هذا السلك فحسب ولم يكن أديباً سعودياً من جيل الرواد الموسوعيين الذين أبدعوا في أكثر من فن فحسب، بل كان فوق هذا كله أديباً عربياً إسلامياً سخر حياته وقلمه وماله لخدمة لغة القرآن والأدب العربي الإسلامي يدافع عنه ويقف في صفه ويتكلم باسمه حتى آخر رفق في حياته.

عقد رجال

أن يكون الرجل لنفسه هذا النوع من الناس توجد من أمثاله الملايين التي لا تعد ولا تحصى. وأن يكون الرجل للناس معناها أن تجتمع فيه همم ومواهب عدة رجال. وهذا الضرب من الرجال الأفذاذ لا يكونه إلا قلة.. قلة من الناس من يتسع صدره لهموم غيره.. وقلة من الناس من ينسى آلامه في خضم معاناة الآلام الآخرين. ولقد رأيت في الأديب الراحل الفريق يحيى المعلمي أكثر من ذلك كله، فلم يعد ارتباط كلمة «الفريق» باسمه ينحصر في الرتبة العالية التي حازها في خدمة وطنه، بل أصبحت كلمة «الفريق» في نظر الكثير من محبيه وعشاق أدبه وفنه ترمز لمعان كبيرة في حياته ومواهبه الأدبية المتنوعة في الشعر والدراسة والمقالة والقصة والمحاضرة.

إن من يتأمل ثقافته وخبراته وإنسانيته العظيمة وإحساسه العميق بالآخرين الذي ينعكس في أعماله شعراً ونثراً يدرك أن كلمة «فريق» في شخص يحيى المعلمي لا تنحصر في دلالتها العسكرية فحسب.. بل

ويلتفت للجيل القادم فيكتب (الأعلام في القرآن للأطفال) في خمسة أجزاء وفي التراجم الأدبية يشهد له كتابه (عقود الجمان) ثلاثة مجلدات . وكتب لحديثي العهد بالإسلام كتابه (الإسلام باختصار) في شرح معنى الإسلام وحكمة الصلاة وتعليمها وترجم بعض كتبه لغير الناطقين بالعربية ليطمئن على وصول رسالته لأكبر قدر ممكن من الناس وأنصف المرأة في كتابه القيم (المرأة في الإسلام) .

وقد يعجب البعض حين يرى أن للفريق المعلمي نتاجاً في القالب المسرحي من التاريخ الإسلامي في كتاب من مجلدين بعنوان «قصص من التاريخ» .

أين ديوان المعلمي؟

وهو إلى جانب هذا كله شاعر لم يعترف لنفسه بمكان في عالم الشعر فأهمل جمع شعره في ديوان، ثم بدأ في جمعه أخيراً بعد إلحاح من محبيه وكنت أتردد عليه في أيامه الأخيرة وأتابع معه مسألة جمع الديوان، فلما قلت له إنني على عزم كتابة دراسة عن شعره قال لي فليكن ما تكتبه مقدمة لديواني . وأمر سكرتيه سعيد أن يسلمني نسخة من الديوان حين يفرغ من جمعه وصفه ثم ألح عليه المرض وتردد على المستشفى حتى أدركه الأجل رحمه الله ولا يزال ديوانه ومجموعة أخرى من أعماله قيد الإعداد والنشر لاشك أنها ستصدر قريباً عن دار المعلمي ، لأن أكبر تكريم للأديب نشر أعماله، وهي خير من يتكلم عنه، وهي حقيقته يدركها نجله الأكبر المهندس الأديب عبدالله المعلمي الذي يحمل اليوم أمانة نشر تراث والده ولا قلق على تراث الأدباء عندما يكون في أبنائهم الوعي والثقافة والوفاء والشعور العظيم بالمسؤولية .

اللقاء الأخير

رغم الأزمات الصحية المتكررة التي تعرض لها هذا الأديب الكبير وتردده على السرير الأبيض وحاجته إلى غسيل الكلى أكثر من مرة في اليوم، والوقت الطويل الذي تستغرقه عملية الغسيل، فضلاً عن معاناته من مشاكل صحية أخرى إلا أنه كان من أعظم من رأيت صبراً وحلماً، فقد كان يتحدث مع زواره عن كل شيء إلا عن مرضه .

ولن أنسى ما حييت وقتاً طويلاً أمضيته إلى جوار

وحسن خلقه وطيبته المتناهية بلا حدود، ما جعل الذين عرفوه يذرفون الدموع السخينة عليه بصدق وحرارة وإخلاص . لقد أدرك هؤلاء الباكون عليه أنهم لن يروا يحيى المعلمي ذلك الوجه المشرق دائماً بملامح الطيبة وسماحة الخلق الرضي والابتسامة الوضعية التي لا تفارقه أبداً حتى في أقسى ساعات الألم .

المعلمي والعقاد

كان أديبنا الراحل الفريق يحيى بن عبد الله المعلمي من المحبين المعجبين بأدب العقاد وشخصيته . وأذكر إنني سألته مرة عن سر إعجابه بالعقاد فقال : موسوعيته في علمه وتفردته بين معاصريه في شخصيته . فقلت له : وما وراء موسوعيته وتفردته فقال : الإسلام . فقلت متعجباً : وكيف يكون ذلك؟ فقال الفريق رحمه الله : «إذا استظل الأديب بالإسلام في كل كلمة يكتبها عانق كل مناحي الحياة، لأنه يجد لنفسه في كل جانب من جوانبها رسالة يؤديها مادام قد اتخذ من الإسلام فلسفة ومنهاج حياة» .

ومن يتأمل اليوم مؤلفات أديبنا الراحل وغزارة إنتاجه وتنوعه يجد أن هذه الغزارة وهذا التنوع قد ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بالإسلام، وكان عشقه للغة العربية لغة القرآن مدافعاً عنها من أن يجترأ عليها مجترئ أو يحط من قدرها قليل علم قاعده الانطلاق في موسوعيته رحمه الله، وتشهد بذلك معاركه وتصويباته واستدراكاته واختياراته في هذا الميدان مثل كتب (شذا العبير) و(الوجيز في النحو) و(من فصحاء العرب) و(كلمات قرآنية) و(الأمثال والشواهد في الحديث الشريف) .

وقد استطاع رحمه الله أن يرتفع بتجربته في خدمة الأمن والشرطة في وطنه إلى مستوى التصور الإسلامي ليقدم بها نموذجاً للجيل الذي يليه فكتب (الأمن والمجتمع) .

عقيدة وسلوك

وكان أديبنا الراحل يؤكد بمؤلفاته بأن العقيدة لا تنفصل عن السلوك، وأن سر تخلفنا يكمن في ابتعادنا عن العمل بأخلاق الإسلام لذلك كتب (مكارم الأخلاق) ثم ألحقه بنموذج تطبيقي في كتابه (آداب السلوك الاجتماعي في سورة الحجرات) ثم يضرب الأمثلة في ثلاثة مجلدات بعنوان (الإعلام في القرآن)



آخر لقاء مع الأديب الراحل قبل وفاته بأيام

يضحك من أعماقه: ستشعر معي في القاهرة أنك لم تكن تعرفها من قبل!! فقلت حسبي شرفاً أن أكون مع الفريق، فأجاب مشيراً إلى مقال سابق كتبته عنه بعنوان «فريق من الرجال» وقال: رجل واحد لا فريق من الرجال. فضحكنا معاً وأحسست وأنا أودعه برغبة شديدة في عنقه فانحنيت ورجوته أن لا يقوم من مقعده لأن ذلك صعب عليه للغاية، وأحسست أنني أحتضن أكثر من ثلاثين كتاباً في الأدب والفكر والدراسات واللغة والنحو والتاريخ والشعر، وشعرت أن رائحة المكان تتضوع بعطر يجدد في الروح الحياة وبهجتها، ويبعث في النفس الأمل وثماره ينبعث من رجل عاش يخدم الحياة الأدبية والفكرية بصدق وحب وإخلاص ما يقرب من نصف قرن.

هذا هو يحيى المعلمي «بقية السلف» من جيل الرواد الكبار في المملكة العربية السعودية الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.. سخر حياته وقلمه وماله لتمثيل وطنه في خدمة الثقافة العربية والفكر الإسلامي.. لم يؤلف عنه إلى الآن كتاب متميز يدرس ثمار إبداعه ويبرز إسهاماته الجليلة.

إن دراسة «الفريق» تحتاج إلى فريق من الباحثين يؤدون هذه «الأمانة» التي ستلازم أبناء هذا الجيل الذي تتلمذ الكثير منهم على يديه. فقد كان هذا الأديب الكبير بحق معلماً في كل ما كتب، موسوعياً بتنوع ما كتب، وكان وحده فريقاً من الرجال يندر تكرارهم في هذا الزمان.

سريه بجناح كبار الشخصيات بمستشفى قوى الأمن. وقد تعمدت أن أزوره متأخراً في المساء حتى انفراد به بأنانية المحب لأطمئن على صحته فأمسيت حزينا منكسر الفؤاد بعد أن عرفت حجم ما يتعرض له من ألم فإذا بوجهه يطفح بالبشر، وإذا به وبإيمانه العميق بإرادة الحياة يزرع في قلبي الأمل ويحدثني عن مشروعاته الأدبية الجديدة وعن آخر ما كتب وعن طموحاته القادمة، فنسيت أنني

في غرفة مريض في أواخر العقد السابع من عمره. أحسست أنني في حضرة أديب شاب أحبه وأعجب به، وكلما تذكرت أدب عيادة المريض وعدم الإطالة هممت بالخروج فيقول لي بمرحه المعهود: لا تجعلني أشعر أنني مريض يا محمد فأقول: أيها الأستاذ القدير أنت أكثر شباباً من الشباب.. مثلك يا سيدي الذي ينفخ في الشباب روح الشباب. فضحك الفريق من أعماقه ضحكته البريئة المعروفة ثم قال بعد لحظة صمت سرح فيها بنظره واستنشق هواء جديداً: إذن اجلس!

أمنية لم تتحقق

ولن أنسى ما حييت جلستني الأخيرة مع يحيى المعلمي الإنسان الذي كان لقائي الأخير به في منزله قبل وفاته بعشرين يوماً تقريباً، ولا أدري ما الذي دفعني أن أحرص على اصطحاب آلة تصوير معي، والتقطت له بها أكثر من عشرين صورة عن قرب وكان في غاية السعادة وهو يراني التقط له الصور وعلي صدره وسام الملك عبد العزيز الذي حصل عليه مؤخراً، وقلت له إن هذه الصور مقدمة «لحوار العمر» الذي أحلم منذ فترة أن أسجله معه. وحين خرجت من منزله في ساعة متأخرة وكان معي صديقي الأستاذ الأديب فاروق صالح بإسلامه ولفحت وجوهنا نسيمات صيف الرياض الحار، دار بخلدي خاطر حزين وأنا أدير محرك سيارتي: هل سيتم هذا الحوار؟ وهل سآراه ثانية؟ واستعدت بالله وأبعدت هذا الخاطر. كان الوعد بيني وبينه أن نلتقي في القاهرة وأن يتم الحديث هناك، وأن أسعد بصحبته، فقال لي مازحاً وهو